الإثنوجرافيا النقدية في علم اجتماع المدرسة

عرض: **علي حامد** *

تَرَسَّخت في رؤوسنا أفكار ومعانٍ عن أشياء وأدوار لا نسأل عنها، بل نقبلها ونُسلِّم بها تسليماً؛ مثل: معنى الامتحانات.. معنى التفوق.. معنى التقويم.. معنى الذكاء.. معنى التحصيل.. معنى المُعلِّم الكفء.. معنى التلميذ الجيد.. معنى أدوار الإدارة والمدرسين والتلاميذ وأولياء الأمور.

فقد تكوَّنت الوقائع التربوية داخل مدارسنا في إطار حضاري يضرب بجذوره في الماضي الصحيح؛ حتى إنَّ أعضاء العملية التربوية داخل المدرسة وخارجها سلَّموا بما يجري وتعاملوا معه كأشياء مُعطاة لا تُنَاقش. وشاعت بيننا أحكام كثيرة عن ذلك الذي يُوجد ويجري داخل مدارسنا، وهي أحكام تصدر مُعظمها عن انطباعات شخصية أو تعميمات هائمة. أحكام لا تُوضِّح حقيقة أو طبيعة موضوعاتها، ومع ذلك تتحكم في أفعالنا وانفعالاتنا في مواقف الحياة اليومية.

وتلعب المُسلَّمات والأفكار التربوية الشائعة، والمفردات اللغوية الراسخة في عقولنا، دوراً أساسياً في تحديد فُرص التغيير والإصلاح التربوي، إن لم تكن عاملاً في القضاء عليها.

وقد بيَّنت لنا دراسات إمبريقية جادة وجود كثير من المشكلات في واقع حياتنا التربوية، من مثل: (الدروس الخصوصية.. التسيب البيروقراطي.. التطرف في الضبط الشكلي أو التفريط في محتواه.. الاغتراب واللامعيارية.. التركيز على التحصيل.. الازدواجيات في نُظُمنا التعليمية.. المركزية الشديدة.. نقص تكافؤ الفرص التعليمية.... إلخ).

وما نحتاج إليه هو فهم طبيعة مشاكلنا التربوية، وفهم واقعنا وديناميات الخبرة الإنسانية المتفاعلة مع الواقع، وما به من مشكلات.

لذلك جاء هذا الكتاب الذي وضعه **الأستاذ الدكتور "حسن البيلاوي"** أستاذ علم اجتماع التربية في جامعة حلوان، وأمين عام المجلس العربي للطفولة والتنمية، ليناقش ويطرح الروافد

* كاتب وناقد.

النظرية التي تقوم عليها الإثنوجرافيا النقدية ومعرفة خصائصها الأساسية لتبيان مدى حاجتنا الشديدة إلى مثل هذا المدخل الإثنوجرافي النقدي لدراسة سوسيولوجيا المدرسة المصرية، وفهمها.

ويبدأ الكتاب الذي يقع في 111 صفحة من القطع الكبير (17 – 24 سم) وأصدره حديثاً (فبراير 2013) المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، بمقدمة المؤلف التي يُبيِّن فيها أن مصطلح "علم اجتماع المدرسة" يُشير إلى تلك الاتجاهات التي نشأت خلال عقد 1970م، وأحدثت تحولات حديثة في الميدان الكبير لعلم اجتماع التربية؛ إذ انتقل معظم علماء اجتماع التربية إلى اهتمام جديد يُركِّز على إجراء دراسات مجهرية بمناهج كيفية وإثنوجرافية لفهم وقائع الحياة اليومية داخل المدرسة، وما بداخلها من بِنَى ثقافية ومعرفية، وتفاعلات يومية تُشكِّل ثقافة المدرسة، وطرائق البيداجوجيا وتوزيع المعرفة التي تُؤثِّر في النهاية في بناء وتشكيل شخصية النشء والطلاب وإنتاج المساواة أو عدم إنتاج المساواة بينهم.

ولقد انطلقت تلك الاتجاهات الجديدة من الإيمان بقدرة الذات الإنسانية على الفهم والإدراك من خلال تفاعلها مع البيئة المحيطة، وقدرة الفرد على الفعل، وقابلية الواقع الاجتماعي للتغيير، وإمكانية خلق واقع أفضل استناداً إلى استخدام المناهج الكيفية والإثنوجرافية الملائمة لمُنطلقاتهم الإبستمولوجية.

وشَكَّلت تلك الاتجاهات سياقات مُترابطة، بما يُمكِّننا من أن نطلق عليها بوضوح "علم اجتماع المدرسة"، ومن أهم هذه الاتجاهات كانت "الإثنوجرافيا النقدية" التي كانت وليده التفاعلات الفكرية النقدية، وما نتج عنها من حراك فكري ارتبط بالتيار النقدي داخل هذه الاتجاهات، وهكذا ظهرت مع مطلع 1970م، وصارت جزءاً لا يتجزأ من حركة التيارات الفكرية النقدية في علم اجتماع التربية، لتؤدي إلى ما نُطلق عليه الآن "علم اجتماع المدرسة" الذي يُشكِّل مساراً جديداً في ميدان علم اجتماع التربية، تلتحم فيه النظرية والممارسة على أرض الواقع، داخل المدرسة.

وتاريخ الفكر التربوي يُوضِّح لنا أن نُظُم التعليم الحديثة نشأت كجزء لا يتجزأ من حركة التنوير؛ ففلاسفة التنوير كانوا يؤمنون بأن التعليم العام يجب أن يُمكِّن الفرد من إعمال عقله وتنمية مهاراته الفكرية والعملية، في البحث واكتشاف المجهول، وأن تكون رسالة المدرسة تعليم جميع التلاميذ في مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية والفنون والآداب؛ ويتضمن الكتاب من هنا ستة فصول، تبدأ بتمهيد يستعرض مصطلح إثنوجرافيا الذي يُشير إلى نوع خاص من البحوث الكيفية التي تقوم على الوصف الكثيف لثقافة فرد أو جماعة معينة أو لما تشتمل

عليه ثقافتهم من مدركات ومعانٍ ومنظورات، ولكيفية تعاملهم في حياتهم اليومية وداخل مؤسساتهم الطبيعية.

ويُبيِّن المؤلف أن هناك إثنوجرافيا تقليدية وإثنوجرافيا تأويلية أو رمزية، لينتهي إلى إثنوجرافيا نقدية قادرة على الربط بين الظواهر الكبيرة والظواهر الصغيرة، وقادرة على مساعدتنا في دراسة وفهم سوسيولوجيا المدرسة المصرية.

وفي الفصل الثاني يتحدث المؤلف عن طبيعة المنهج البحثي للإثنوجرافيا النقدية، والمنهج في العلوم الاجتماعية والتربوية ذو طبيعة اجتماعية بالضرورة؛ فالبحث العلمي ما هو إلا نشاط اجتماعي. وتتضح هذه الطبيعة المنهجية في قضيتين مهمتين: **أولاً**: أن منهج البحث ـ في أي شكل من أشكاله ـ ذو أبعاد فلسفية وأيديولوجية. ينتج عنها بالضرورة رؤى فكرية تُوجِّه الباحث إلى فهم الممارسات التربوية داخل حجرة الدراسة والمدرسة. وهذه الرؤية لها أهمية حيوية في النشاط البحثي؛ فهي التي تُحدِّد مجال وطبيعة العلاقات التي يشملها البحث، كما تُحدِّد الطريقة التي ينظر الباحث من خلالها إلى مهمة التغيير في المدرسة، ووجهة التغيير وكيفية حدوثه.

ثانياً: أن أي نشاط بحثي إنما يتم داخل جماعة علمية، يعمل من خلالها العَالِم أو الباحث، ويستمد شرعية وجوده العلمي بنفسه من خلالها. ذلك أن الاتجاه العلمي لا يعيش ولا يُمَارَس بغير جماعة علمية تؤمن به. إن التفاعل بين مجموعة معينة من العلماء هو الذي يُنمِّي ويدعم ما يؤمنون به من اتجاه أو منظور علمي؛ أي مجموعة المعايير والأعراف والمسلمات والأهداف واللغة المشتركة.

وقد ترك الآباء الثلاثة لعلم الاجتماع العام ـ ماركس وفيبر ودوركايم ـ بصماتهم القوية والمؤثرة على علم اجتماع التربية. وبالرغم من اختلاف توجهاتهم الفكرية الثلاثة، وبالرغم من عدم

ارتباطها بالتربية كموضوع مباشر ـ باستثناء دوركايم ـ فإنها اشتركت في ثلاثة عناصر رئيسة أثَّرت على حركة البحث والتنظير التربوي:

أولاً: النظرة إلى التربية كمؤسسة اجتماعية كبيرة.

ثانياً: وضع التربية كمؤسسة اجتماعية بين مؤسسات المجتمع الكبير، ودراسة ما بينها وتلك المؤسسات من علاقات ومشكلات (مشكلات الاقتصاد السياسي ـ ماركس، ومشكلات البيروقراطية ـ فيبر، ومشكلات النظام السياسي ـ دوركايم).

ومعنى ذلك أن العلاقة بين المجتمع والتربية (في كل تلك التنظيرات) هي علاقة هيمنة في اتجاه واحد: إما هيمنة علاقات وقوى الإنتاج، أو هيمنة البيروقراطية، أو هيمنة نظام الدولة السياسي. وهو ما أخضع التربية والعمل التربوي داخل المدرسة لبِنَى قاهرة للإنسان؛ فَدَمَّرَ كل هامش للمبادرة والابتكار لما يمكن أن يقوم بها الناس في حياتهم اليومية (كما يشير إلى ذلك عبد السميع سيد أحمد في بحثه "جدوى نظرية القهر في اجتماع التربية").

ومدخل الدراسة هنا، هو الإثنوجرافيا النقدية، التي تهتم بدراسة الظاهرة دراسة كيفية حقلية في إطارها الزماني والمكاني.

ويتبع ذلك **الفصل الثالث** الذي يتناول بالتحليل هذا المدخل، والذي يعرض فيه "البيلاوي" بإيجاز للروافد النظرية والينابيع التي تقوم عليها محاولته في تأسيس الإثنوجرافيا النقدية ـ كمدخل كيفي ـ لدراسة المدرسة. أما الينابيع والروافد التي نهتم بها؛ فهي تتمثل في أربعة اتجاهات نظرية، هي:

(1) **التفاعلية الرمزية** التي تُركِّز على الطبيعة الاجتماعية والتفاعلية للحقيقة الواقعية. ويتفق أعلام تلك المدرسة حول نشأة الرموز وانبثاق الذات خلال التفاعل الاجتماعي، والاهتمام بدراسة الحالة سواء أكانت فرداً أم جماعة اجتماعية، أم مجاورة سكنية، أم مجتمعاً محلياً. كم اتفقوا حول الاهتمام بدراسة التفاعل في السياق الاجتماعي، والاهتمام كذلك بمبدأ الكلية، وهو مبدأ أساسي في المنهج الكيفي عامةً، ، يرى أن السلوك يمكن دراسته دراسة مفيدة في ضوء الموقف الذي ينشأ عنه ومن خلاله هذا السلوك.

(2) **الفينومينولوجي** (الظاهراتية)، وهو اتجاه فكري يهتم بفهم الأشياء كما تبدو لنا. وهو يُوجِّه عناية الباحثين إلى فهم معاني الأحداث والتفاعلات الاجتماعية للناس العاديين في مؤسسات مُحدَّدة. وعلم الاجتماع الفينومينولوجي في التربية تأثر بأعمال هوسرل وألفريد شوتز.

والمؤلف يسرد أفكار كلا المُفكرين الأوروبيين، وغيرهما مثل: ديل، ودوجلاس، وإيزلاند من علماء اجتماع التربية الفينومينولوجيين المتأثرين بالفكر الماركسي. والذين انتبهوا إلى مسألة توزيع القوة داخل حجرة الدراسة وتأثيرها في عملية تحديد أو تعريف الموقف.

(3) **الإثنوميثودولوجي** وهو اتجاه لا يُشير إلى نظرية معينة، وإنما يهتم بالتحليل السوسيولوجي للحياة اليومية، ودراسة أساليب الأعضاء في جماعة اجتماعية معينة. وهذه الأساليب هي ممارسة حوارية.؛ أي أشكال من التحدث وعناصر محادثة. ومن أهم أعلام ذلك الاتجاه: جارفينكل، وسيكوريل، وزيمرمان، وأوكيف. وفي علم الاجتماع التربوي نجد "ميهان" و"هيمان" كذلك.

(4) التأويلية النقدية التي هي أداة الإنسان لتحقيق خلاصه وتحرير نفسه من كل أشكال الهيمنة والاستغلال.

فالتأويل نشاط إنساني شامل لكل القوى العقلية، وهو أداة الإنسان للوصول إلى الفهم. والنقد – كذلك – نشاط إنساني واسع.

وما نفهمه هو بالضرورة خبرة إنسانية، والخبرة الإنسانية تاريخية بالضرورة؛ فإذا ما سألنا: ما الإنسان؟ فإن التاريخ وحده القادر على الإجابة. إن تعمير الحياة الماثل وراءنا تاريخياً، بكل ما فيه من سعي ونضال من أجل العدالة والحرية، هو ما يجيب عن ماهيتنا نحن.

وهكذا.. إلى أن نصل إلى **الفصل الرابع** "خصائص الإثنوجرافيا النقدية"، وعلى ضوء ما سبق طرحه في الفصل السابق، يستخلص المؤلف سبع خواص أساسية ينبغي أن تتوافر في أي جهد وعمل إثنوجرافي نقدي؛ وهي اعتبارها دراسة للخبرة الإنسانية من الداخل من خلال معايشة الحدث والانخراط فيه، واهتمامها بدراسة منظور المشاركين والوعي به، كما أنها نشاط بحثي يهتم بالتنظير، وهي بحث عن القواعد الحاكمة، وهي كذلك بحث لما بين الذاتية؛ أي التفاعل الرمزي بين المشاركين في الموقف. وتنظر الإثنوجرافيا النقدية إلى الحقائق باعتبارها نتاجاً اجتماعياً، وأخيراً هي دراسة للوقائع الصغيرة والبِنَى الكبيرة. هذه الخصائص السبع كافية متى توافرت لتأسيس مثل هذا المدخل الإثنوجرافي النقدي.

وفي **الفصل الخامس** يعرض الدكتور البيلاوي لبعض نماذج بحثية بهدف توضيح هذه الخصائص كنشاط عملي في ممارسات بحثية مُحدَّدة، هي خمس دراسات تساعدنا على رؤية وتجسيد بعض التوجهات النظرية المختلفة في البحوث الإثنوجرافية.

الأولى منها؛ نموذج لنمط الإثنوجرافيا التقليدية ، وهي دراسة "ديفيد هارجريفز"، وفيها استخدم الباحث الملاحظة المشاركة والمقابلات والاستبيانات (واستغرقت الدراسة مدة عامين)، وعالج فيها العلاقات الاجتماعية بين المُدرِّسين والتلاميذ داخل مدرسة ثانوية؛ فأمدنا بوصف للبِنَى الاجتماعية للمدرسة الثانوية في ضوء المفاهيم الوظيفية البنيوية، لتقول لنا إنَّ التفاعل لا يتم في فراغ إنما يتم من خلال وبواسطة بِنَى قاهرة.

والدراسة **الثانية** قام بها "نيل كيدي ـ 1971" كنموذج للبحث الإثنوجرافي التأويلي، واعتمدت على تقنيات الملاحظة المشاركة والمقابلة العميقة، واستغرقت الدراسة مدة عام، داخل حجرة دراسة في مدرسة ثانوية، ودارت في إطار وحدة مناهج العلوم الاجتماعية داخل المدرسة.

ثم الدراسة **الثالثة** "ويليز ـ 1977"، وهي نموذج لدراسة إثنوجرافية نقدية، وقد قام الباحث بدراسة إثني عشر تلميذاً، من أبناء الطبقة العاملة، من بين تلاميذ مدرسة ثانوية، في بلدة صناعية صغيرة بإنجلترا. وهدفت الدراسة إلى فهم "الثقافة المضادة" للمدرسة، التي يكشف "ويليز" بأنها عدوانية ومُعَارِضة بشكل شخصي وعام لسلطة المدرسة.

أما الدراسة **الرابعة** للباحث "أودمان ـ 1985"؛ فسارت على المنهج نفسه الذي سارت عليه دراسة "ويليز"، وقام بها في إحدى المدارس الثانوية الخاصة بأولاد الغجر في إستوكهولم، واعتمد على التفسير التأويلي للوقائع والأحداث.

أما الدراسة **الخامسة** والأخيرة التي عرضها مؤلف كتابنا هذا؛ فهي لـ "آندي هارجريفز ـ 1976"، وهي محاولة مهمة لربط التفاعل اليومي داخل حجرة الدراسة والمجتمع.

وقد استطاع من خلالها أن يمدنا بمُخَطط نظري يُصوِّر العلاقة بين التحليلات السوسيولوجية لعملية التفاعل اليومي في حجرة الدراسة، وتلك التحليلات التي تهتم بالبِنَى الثقافية والاجتماعية التاريخية في المجتمع الكبير، ولذلك فهي مفيدة في إثراء ما تَقَدَّم من تحليل وخصائص للإثنوجرافيا النقدية التي نسعى لتأسيسها في الاتجاه نفسه.

وتصل دراسة الدكتور حسن البيلاوي إلى الفصل السادس والأخير من كتابه، والذي وضع له عنواناً هو "الإثنوجرافيا النقدية والمدرسة المصرية"، ليُبيِّن لنا مدى حاجتنا الشديدة إلى مثل هذا المدخل الإثنوجرافي النقدي لدراسة سوسيولوجيا المدرسة المصرية، وفهم طبيعة مشاكلنا التربوية، وفهم واقعنا وديناميات الخبرة الإنسانية المتفاعلة مع الواقع، وما به من مشكلات، والتي يعرض المؤلف بعضاً منها في نهاية صفحات كتابه؛ ومنها المُنتج التربوي الذي أنتجه هذا الواقع،

وتعني تلك الشخصيات التي قد تُنميها العمليات التربوية بكل أبعادها كالشخصية المُسَايرة والمُتمرِّدة والفهلوية، ودور المدرسة أو مسؤوليتها عن إنتاج هذه الشخصيات، واستمرار بعض هذه الظواهر في المجتمع كالتحايل والنفاق والفهلوية.

(إنَّ زيارة لبعض الفصول من شأنها أن تجعلنا نرى الاختباء خلف الرُّءُوس، واختيار المقاعد الخلفية، والنظرات الزائغة، وأعمال التخريب، وكل التطرفات التي يقوم بها التلاميذ، كظواهر عامة تستحق الدراسة. وقد تثور تساؤلات كثيرة حول هذه الشخصيات التي تنتج داخل مدارسنا؛ ما هي حقيقة هذه الشخصيات، كيف تنشأ، وتتكوَّن سماتها، ومن المسئول عن إنتاج هذه الشخصيات، وقد تكون الإجابة أنَّ المدرسة ـ بسبب رسالتها الخفية ـ هي المسئولة عن استمرار بعض تلك الظواهر).

كذلك هناك مسألة اللغة في واقعنا المصري وداخل مدارسنا؛ فمُفردات اللغة تلعب في الخطاب اليومي دوراً كبيراً في تشكيل التنظيمات والبنَى الاجتماعية، ثم علاقات القوة والنفوذ وتوزيعها داخل مدارسنا. أيضاً يبدأ البحث الإثنولوجي النقدي بالتساؤل عن معنى التفوق ودلالته، إذا ما تكلمنا عن ضرورة الاهتمام بالمتفوقين، وفتح فصول خاصة بهم داخل بعض المدارس، وهناك مشكله اختزال العملية التربوية في مدارسنا إلى اعتبارها مجرد عملية تحصيل وهو ما أصبح الآن هو كل الواقع التربوي وارتبطت به معانٍ كثيرة، مثل معنى "التلميذ الجيد" و"المدرسة الكفء"؛ حيث اختزلت التربية إلى التحصيل وتجويد الحفظ. ونصل إلى مشكلة "الدروس الخصوصية"، وهي مشكلة مهمة في واقعنا التربوي تُشكِّل ضغوطاً مادية ومعنوية قاسية ومريرة على الأسرة وأبنائها، وتُفسد السياق التعليمي والثقافي والحضاري برمته في بلادنا.

وينطلق المدخل الإثنوجرافي من اعتبار أن كل ما يدور داخل المدرسة هي حقائق اجتماعية، أُنْجِزَت من خلال التفاعل اليومي بين الأطراف المشاركين، وما تم فيه من تفاوضات واتفاقات، وإذن فالدروس الخصوصية هي مُنتج اجتماعي صنعه وأبدعه أعضاء الموقف في إطار القواعد والمقولات الحاكمة، وهناك أيضاً مشكلة الازدواجيات التي تفاقمت الآن في نظامنا التعليمي (مدارس عامة ومدارس خاصة ومدارس عامة عربي ومدارس عامة لغات ومدارس خاصة أجنبية ومدارس دينية عامة وخاصة ..... وهكذا). ويرتبط بهذه الازدواجيات مسألة أخرى هي مسألة العدالة الاجتماعية في المجتمع وإلى أي حد تصنع هذه المدارس المتعددة ــ الازدواجيات ــ فروقاً اجتماعية؟ وكيف؟ ونصل إلى خاتمة هذه الدراسة التي هي محاولة لتأسيس إثنوجرافيا نقدية

كمدخلٍ كيفيٍّ في علم اجتماع التربية. وقد ميَّزت الدراسة بين ثلاثة أنواع مختلفة للإثنوجرافيا:

(1) الإثنوجرافيا التقليدية التي ارتبطت بتقاليد المدرسة الوظيفية في الأنثروبولوجي وعلم الاجتماع، وتقوم على مفاهيم المكانة والدور والمعايير والقيم كمفاهيم مُسبقة لفهم التفاعل.

(2) الإثنوجرافيا التأويلية المرتبطة بتقاليد علم الاجتماع الرمزي في اتجاهاته الثلاثة، أو في واحد منها أو أكثر (التفاعلية الرمزية، الفينومينولوجي، والإثنومثيودولوجي).

(3) الإثنوجرافيا النقدية التي تعتمد على محاولة للتأليف بين (التقاليد التأويلية الرمزية الثلاثة) من جهة، و(التقاليد النقدية) التي تستند إلى منظور ديالكتيكي في الربط بين التحليلات السوسيولوجية للظواهر الصغيرة في الحياة اليومية داخل المدرسة، والتحليلات السوسيولوجية للظواهر الكبيرة في المجتمع من جهة أخرى.

وفي **خاتمة الدراسة** التي هي محاولة لتأسيس إثنوجرافيا نقدية، كمدخل كيفي في علم اجتماع التربية، يُوكد الدكتور حسن البيلاوي أن الإثنوجرافيا النقدية ليست مجرد وصف كثيف لفهم خبرة الحياة المشتركة لمجموعة من الأفراد، إنما هي ـ أساساً ـ نشاط نظري يعكس توجهاً إبستمولوجياً، وافتراضات، ورؤى نظرية.

وقد ميَّزت الدراسة الحالية بين الأنواع الثلاثة المختلفة للإثنوجرافيا والتي أشرنا لها سابقاً في عرضنا لهذا الكتاب؛ وهي: الإثنوجرافيا التقليدية، والإثنوجرافيا التأويلية، والإثنوجرافيا النقدية، والتي نتعرف إليها بالتفصيل عند قراءتنا الدقيقة لمضمون تلك الدراسة المفيدة للتربويين والعاملين في مجال التربية والتعليم.

إذن يمكن أن نجمل القول بأن الإثنوجرافيا النقدية – في مجال التربية – تساعدنا على فهم واقع الحياة اليومية في مدارسنا المصرية، كما تقودنا إلى اكتشاف إمكانات التغيير الكامنة في هذا الواقع.

إن "الإثنوجرافيا النقدية" تُتيح لنا أن نعرف الناس شخصياً وعن قُرب، وأن نراهم على نحو ما ينتجون ويصنعون تعريفاتهم وخبراتهم في مواقف الحياة اليومية.